بدائل قروية
عدد خاص بالعمال الزراعيين
www.alternatives-rurales.org- 2024
https://doi.org/10.60569/hsoua-61

عمال من جنوب البحر الأبيض المتوسط، مقاولون في الشمال: استراتيجيات الارتقاء الاجتماعي للعمال المزارعين بموجب عقد بين فرنسا والمغرب

آن أديلايد لاسكو
مختبر تحليل المقارن للسلط، جامعة غوستاف إيفل
للتواصل: anne-adelaide.lascaux@univ-eiffel.fr

ملاحظات توليفية انطلاقا من أطروحة آن أديلايد لاسكو" فلاحو الحيس. اندماج المزارعين المغاربة من خلال الممارسات غير الرسمية في المنطقة البروفنسالية المتدهورة"

ناقشت آن أديلايد لاسكو أطروحتها في الجغرافيا عام 2022 تحت إشراف جولي لو غال وكارين بينافلا. هذا العمل، تم تنفيذه جزئيًا في قرية طفولتها، بحيث تساءل هذه الأطروحة المقاولاتية والممارسات غير الرسمية كاستراتيجيات للمقاومة والتكيف عند الطبقات العاملة المنحدرة من الهجرة والعمل المأجور في فرنسا.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى فؤاد الحاج حسين لقيامه بترجمة هذه المذكرة الموجزة إلى اللغة العربية، وكذلك أيضا إلى زهور بوزيدي و إدريس بن العربي للتدقيق اللغوي والعلمي

مقدمة

في عام 2015، بينما كنت في مرحلة الماجستير كنت اِنْضَمَمْتُ إلى الشبكات الجامعية التي تتساءل وتبحث في الروابط بين الزراعة والهجرة، دعاني والدي لمراقبة رحلات العمال الزراعيين المغاربة السابقين - وأطفالهم - الذين أصبحوا مزارعين في قريتنا، في بروفانس[1] بدأت بعد ذلك بالاهتمام بالإستراتيجيات المقاولاتية في المجال الزراعي التي مارستها الطبقات العاملة ذو خلفيات مهاجرة مغاربية في فرنسا بمساعدة عائلتي التي تعمل بالقطاع الزراعي أيضا. من خلال تقاطع مسار عائلتي على مدى عدة أجيال مع مسار العمال الزراعيين المغاربة، استندت إلى مجالي الحميمي

[1] البروفانس هي منطقة موجودة في الجنوب الشرقي من فرنسا تتوفر فيها الكثير من فرص عمل التي تجذب العمال في القطاع الزراعي

لإعادة إظهار التاريخ والجغرافيا الجماعية للمنطقة البروفنسالية، (Eribon، 2009) . بين عامي 2017 و 2022، قمت بإنجاز أطروحة دكتوراه في الجغرافيا الاجتماعية تتعلق بإعادة تحويل الأجراء المغاربة السابقين كمشغلين في مناطق الإنتاج في بروفانس في جامعة جان مولان ليون 3 بعنوان "فلاحو الحيس[2] ."إدراج "المزارعون المغاربة من خلال ممارسات غير رسمية في منطقة هويرتا البروفنسالية المتدهورة"، بإدارة كارين بنافلا وجولي لو غال.

في هذه المذكرة الموجزة للعدد الخاص من مجلة البدائل الريفية المتعلقة بالاستراتيجيات التي طورها العمال المزارعون المغاربة للاستمرار في بيئة مهنية مليئة بالتحديات، أقترح إعادة قراءة أبحاث الدكتوراه الخاصة بي من خلال منظور أشكال قوة الفعل والمقاومة التي تم وضعها من قبل هؤلاء المزارعون وأعني قوة الفعل ، قدرة الفرد على التحكم في وجوده من خلال التصرف المقصود وتأثيراته على نفسه وعلى الآخرين وعلى بيئته (Jézégou, 2022).

من أجل تحرير أنفسهم من شرط العمالة الموضوعة بموجب قوانين الهجرة المشروطة، يقدم العمال المغاربة على ميادين مقاولاتية في فرنسا، معتمدين بشكل خاص على الممارسات غير الرسمية، أي غير المعلن عنها للدولة (Fontaine et Weber,2011).

للتعويض عن افتقارهم إلى رأس المال الأولي، ينطلق العمال الذين يعيدون توجيههم تدريجيًا إلى النشاط الزراعي المستقل دون الإعلان دائمًا عن أنفسهم لمؤسسات الدولة مثل مؤسسة الحماية الاجتماعية الإجبارية MSA أو غرفة الزراعة . ويقومون باستئجار يد عاملة متوفرة، أحيانًا في وضع غير نظامي، أو أيضا يستعملون بعض المواد الكيميائية الزراعية[3] دون أن يكون لديهم أي مؤهلات تسمح لهم القيام بذلك. هذه الممارسات غالبا ما تصاحب فترة الاستقرار، دون أن تستمر بالضرورة مع مرور الوقت.

وبينما يتوجه الفلاحون إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط لتجاوز الفقر الذي عانته حملاتهم الأولية، يجدون في مزارع الإنتاج الفرنسية ظروفا معيشية صعبة وعمل غير مستقر. فكيف لتغير مسارات العمال في فرنسا من عمال زراعيين إلى مقاولين زراعيين يندرج ضمن منطق النجاح في انجاز مشاريع مرتبطة بالهجرة؟

بالفعل، مناطق إنتاج البحر الأبيض المتوسط هي مساحات لمرور العمال في قطاع الزراعي عبر الحدود الدولية. ومع ذلك، لعدة عقود، كان القطاع الزراعي في بروفنس يتقلص. هذا الانهيار إن كان قد أدى إلى تدهور ظروف العمل لهؤلاء العمال المغاربة، فإنه يوفر لهم الفرصة للاستقرار في الفجوات المتبقية المهملة غير المزروعة والهروب من ظروفهم العمالية الصعبة. ؟(فما هي الاستراتيجيات المقاولاتية التي تنهجها الطبقات العاملة من أجل الإرتقاء الاجتماعي ؟)

حاليا يشكل المزارعين في شمال البحر الأبيض المتوسط رؤساء العمل، فهم يجسدون في جنوب البحر الأبيض المتوسط في الشتات على الرغم من عدم الاستقرار وعدم اليقين في المسارات التي تتسم بالطابع غير الرسمي.

يشكل المقاولون المغاربة مظهرا جديدا للمزارعين في شمال البحر الأبيض المتوسط. فمن حيث تحولهم إلى مشغلين، بل أيضا أرباب عمل، فإنهم يجسدون في جنوب البحر الأبيض المتوسط وجها ناجحا للجالية المغربية على الرغم

[2] الحيس: كلمة مشتقة من اللغة العربية وتدل على المعاناة يتم استخدامها في فرنسا بشكل خاص في اللغة العامية من قبل الطبقات الشعبية المهاجرة المغربية

[3] مواد كيميائية تستخدم في المجال الزراعة من أجل القضاء على بعض الحشرات أو الآفات الضار

من عدم الاستقرار وعدم اليقين في مساراتهم التي تتسم بالطابع غير الرسمي.

يتكون هذا المقال من ثلاثة أجزاء، كما هو الحال في أطروحة الدكتوراه التي يلخصها :

نشأة بحث الدكتوراه: التحول من عمال زراعيين موسميين إلى مزارعين مغاربة مستقلين

يعود الجزء الأول من أطروحتي إلى سياقية المجال، مراجعة الأدبيات المنجزة حول الموضوع وتقييم معرفتها ، وكذا المنهجية المعتمدة .

ميدان البحث: البيئة البروفونسالية مجال للتنقل و ورسو العمال المغاربة

الحويرتا[4] البروفنسالية هي نظام إنتاجي يعتمد على عدد كبير من قطع الأراضي السقوية الصغيرة التي تزرع فيها منتجات ذات قيمة تعتبر عالية، لا سيما في مجال البستنة السوقية[5] و الأشجار المثمرة. تتطلب هذه الزراعات الأحادية[6]المكثفة وفرة في اليد العاملة خلال أوقات معينة من السنة، خاصة أثناء الزراعة والحصاد . لقد شهد هذا القطاع الذي كان مربحا للغاية لفترات طويلة من الزمن، تراجعًا منذ السبعينيات، والذي تسارع بدوره في العقد التالي مع افتتاح الأسواق داخل وخارج أوروبا وخلق المنافسة بين السلع. لقد أدت هذه الصعوبات إلى انهيار صغار المزارعين في منطقة البرفونس الذين أصبحوا حاليا كبار في السن ، الأمر الذي جعل العديد منهم يتركون المزارع دون مشتري وبحالة مهملة. في النصف الثاني من القرن العشرين، تم إفراغ الريف البروفنسي أيضًا من اليد العاملة المحلية، التي فضلت والتوجه نحو العمل في القطاع الثالث في المدن مما استدعى المزارعين المحليين للجوء إلى العمالة الأجنبية الموسمية، والتي يختلف أصلها باختلاف الوضع الاقتصادي والجيوسياسي، مثل الدول (إيطاليا، إسبانيا، المغرب، بولندا، الإكوادور، السنغال).

منذ عام 1974 وانتهاء هجرة العمالة الدائمة إلى فرنسا، تم إبرام اتفاقيات ثنائية بين دول المغرب العربي وفرنسا من أجل تسهيل وصول العمال الموسميين إلى القطاعات المعلن عنها كقطاعات تعاني من حالة توتر ونقص اليد العاملة مثل الزراعة. هذا النظام، الذي يديره المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج(OFII) ، يعمل على شكل عقود عمل مؤقتة بحيث يجب أن تتراوح مدتها بين أربعة وستة أشهر[7]. وتشكل الزراعة واحدة من القطاعات أكثر طلبا من قبل المزارعين، لا سيما في منطقة بروفنسال، حيث يأتي غالبية العمال من المغرب .وفي عام 2018، كان 77% من العمال الذين قدموا إلى فرنسا عبر هذا النظام من الجنسية المغربية، بما في ذلك 43% توجهوا إلى مقاطعتي بوش دو رون وفوكلوز.

ويعتبر المغرب البلد الأفريقي الذي يرسل أكبر عدد من العمال الموسميين إلى أوروبا، ويوجد جزء كبير منهم في مزارع جنوب شرق فرنسا، كما يتبين من الخرائط التالية (الشكل 1). وفي حين أن العديد من هؤلاء العمال العابرين للحدود الوطنية يقضون حياتهم المهنية بأكملها في التنقل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، فإن بعضهم يستقر بشكل دائم في مناطق الوصول أي مناطق

[4] نظام زراعي متواجد في منطقة البحر الأبيض المتوسط يعتمد على تنظيم وإدارة استهلاك المياه وزراعة قطع الأرض الصغيرة

[5] البستنة السوقية: زراعة الخضراوات

[6] الزراعات الأحادية : التخصص في زراعة نوع أو نوعين من المحاصيل https://www.almaany.com/fr/context/ar-/fr/monoculture

[7] تم إنشاء المكتب الوطني للهجرة (ONI) في عام 1945 لإدخال العمال الأجانب إلى الأراضي الفرنسية بعقود عمل .وفي عام 1974، بعد تعليق هجرة العمل الدائم، تم تغيير اسمه إلى مكتب الهجرة الدولية .(OMI) فأصبح العمال المهاجرون فقط عمال موسميين يأتون من البلدان التي وقعت اتفاقيات العمل مع فرنسا، وخاصة المغرب العربي .وفي عام 2009، أصبحت هذه المؤسسة هي المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج(OFII) .

الإنتاج، وبعد الحصول على عقد دائم، أو من خلال استراتيجيات الزواج، يصبحون مقيمين دائمين في فرنسا . بعد عدة عقود من العمل كيد عاملة، يشرع البعض في مغامرة مقاولاتية وينشئون مزرعتهم الخاصة . هذه هي الفئات التي أصبحت مهتمَّة بها أثناء بحث الدكتوراه.

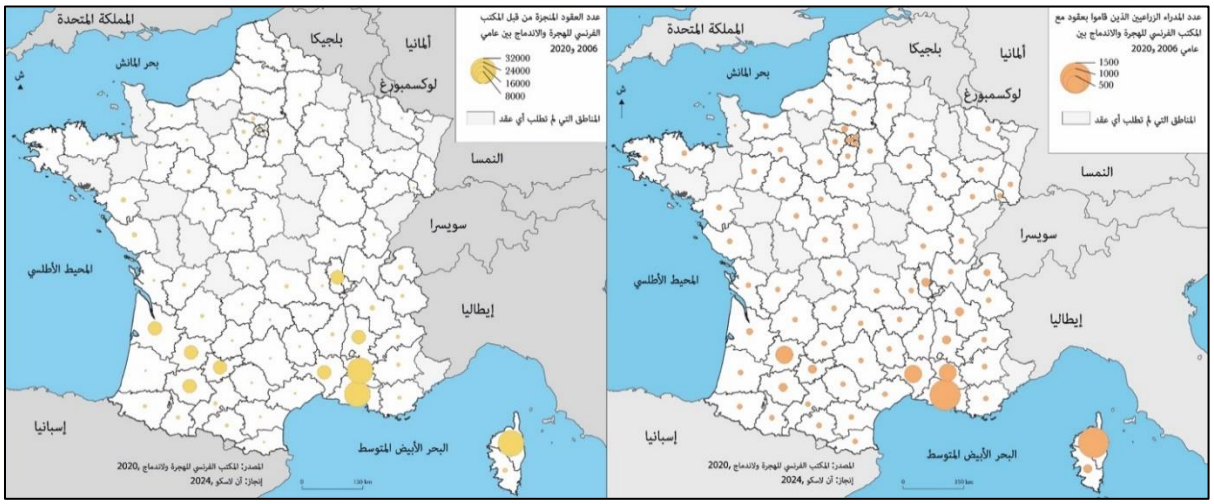

الشكل 1: عدد عقود OFII وأصحاب العمل الذين طلبوها في القطاع الزراعي في فرنسا بين عامي (2006 و2020المصدرOFII : 2020)

مراجعة الأدبيات المتعلقة بالموضوع: تجديد منظور العلوم الاجتماعية بشأن هجرة اليد العاملة المشروطة بإرادة الفعل

يعود أصل هذا العمل البحثي إلى عدة دراسات في الأدبيات العلمية قمت بملاحظتها، نشأت عنها ثلاث فرضيات رئيسية. أولا، إذا كان العمال المؤقتون عبر الحدود الوطنية يعتبرون منذ فترة طويلة الأشخاص المنسيين في الدراسات الريفية (Hubscher and Farcy 1996), فإنهم الآن موضوع اهتمام متزايد في العلوم الاجتماعية، بحيث تم البحث في الشروط التوظيفية وراتب هذه اليد العاملة من خلال منظور الصحة والسكن وشروط العمل والقانون وبما يتعلق أيضا بمنظور وأطر الهجرة التي تجبر هذه القوى العاملة الأجنبية على أن تكون "هشة ومرنة وقابلة للاستبدال،(Mésini 2013). ومع ذلك، فإن القليل من الدراسات تستوعب بشكل كامل الاستراتيجيات الإرادوية التي يظهرها العمال الزراعيون لتنفيذ مشروع الارتقاء الاجتماعي والهجرة .على نحو مماثل، وعلى الرغم من كثر الدراسات في مجال التنقل وعبور الحدود، فنادرا ما يتم النظر إلى العمال الموسميين من وجهة نظر المناطق التي يترسخون بها أثناء الهجرة. وإنما بربطهم بحالة "الطيور العابرة" (Piore، 1979)، بالرغم من إظهارهم نوع من الاستقرار في المساحات التي يمكنهم استثمارها بطريقة مستدامة، وهنا نتحدث بالأخص عن أماكن الوصول المتمثلة بمناطق الإنتاج الزراعي الفرنسي.

وأخيرًا، يستدعي بحثي في مرحلة الدكتوراه إلى تحويل التركيز عن الممارسات غير الرسمية. لأن هذه الأخيرة يتم دراستها بشكل رئيسي من الجنوب وفي المدن، في حين أن هذه المناطق ليست هي الوحيدة المعنية . يوضح استمرار وتطور الممارسات غير الرسمية في المناطق الريفية الأوربية إلى التراجع الذي شهدته المساحات الإنتاجية نتيجة لسياسات الرأسمالية

الحديثة، فضلاً عن صعوبات الاندماج التي يواجهها السكان من خلفيات مهاجرة عند الشروع في مسارات الصعود الاجتماعي، بحيث تظهر هذه الممارسات غير الرسمية كأداة للمقاومة في إطار التدهور الاقتصادي والاجتماعي.

منهجية البحث: مقاربة حساسة لميدان مألوف

للقيام بهذا العمل البحثي للدكتوراه، اعتمدت على القرية التي ترعرعت فيها طفولتي في الجنوب الفرنسي، وهي منطقة زراعية تتواجد في وادي دورانس السفلي شمال بوش دو رون ، ، حيث يقطن والدي و أخي والذين يعملون بدورهما بالزراعة و مختصين في مجال التشجير . وللوصول إلى ميدان البحث، قمت بحشد شبكات معارف أفراد عائلتي، وكذلك شبكات العمال الزراعيين العاملين في شركتنا العائلية .هؤلاء العمال الذين تعاملت معهم لفترة طويلة خلال طفولتي التي أمضيتها في العمل مع والدي خلال أشهر الصيف. هؤلاء الوسطاء سمحوا لي بالوصول إلى المزارعين المغاربة الذين بدورهم ترددوا لفترة طويلة قبل أن يستقبلوني.

في الواقع، في نظر هؤلاء العمال المغاربة، كنت أمثل أصحاب العمل، وذلك من خلال نسبي العائلي، ولكن أمثل أيضًا المؤسسات التي لا يشعرون بالارتياح معها دائمًا، وذلك بسبب نشاطي البحثي الذي ربطوه بشكل من أشكال مراقبة الدولة. أما بالنسبة لي، فكانوا يمثلون الآخر الذي لم يهيئني مكاني كطفل لأبوين أرباب عمل بروفنسيين لمواجهته بشكل كافٍ.

وبالفعل لتفكيك تمثلاتنا المتبادلة، اعتمدت منهجية بحث نوعية، تتمثل بشكل خاص باستخدام الملاحظة بالمشاركة ، و متابعة الحياة المهنية للأصحاب العمل المغاربة على مدى عدة سنوات . فقد قمت بالمجمل، بين شتاء 2015 وصيف 2019، بتنفيذ ما يقرب من عام من العمل الميداني مع المزارعين المغاربة في المنطقة البروفنسالية. عملت إلى جانبهم ومع عمالهم، حيث أمضيت ساعات طويلة في قطف الكوسا وغسل اللفت وزراعة البطيخ والبيع في أسواق الجملة .في هذه الأثناء، أجريت حوالي ستين مقابلة نصف موجهة مع مجموعة متنوعة من أصحاب العمل في قطاع الفواكه والخضروات في منطقة البحر الأبيض المتوسط تمحورت حول سيرهم الذاتية. وبالفعل فقد أجريت مقابلات مع المزارعين المغاربة أنفسهم، ولكن أيضًا مع المزارعين الفرنسيين المحليين ومندوبي المبيعات والشاحنين والمؤسسات الفاعلة مثل ممثلي MSA ومؤسسة الرقابة والتفتيش الخاصة بقطاع العمل وإدارة OFII، حتى أنني ذهبت إلى المغرب لبضعة أيام للقاء بعض العائلات مباشرة هناك، في منطقة فاس مكناس.

لقد سمح لي هذا البحث بتسليط الضوء على استراتيجيات ريادة الأعمال التي حشدها أفراد الجالية المغربية لبدء مسارات اجتماعية واقتصادية ارتقائية في القطاع الزراعي من خلال الاستقرار في قطع الأراضي المهجورة منذ العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فأصبح العمال السابقون المغاربة يجسدون صورة جديدة للمزارعين وأرباب العمل في بروفانس، في نفس الوقت الذي يعيدون فيه تنشيط الوظيفة الزراعية لهذه المساحة الإنتاجية التي تعاني من صعوبات.

إنشاء المشروع الزراعي الخاص: تغلغل خفي في فجوات النظام الزراعي النموذجي المتوسطي

الجزء الثاني من أطروحتي يحلل الاستراتيجيات المقاولاتية التي يستخدمها المزارعون المغاربة للعمل على حسابهم الشخصي، ولا سيما البحث في علاقتهم بالممارسات غير الرسمية. أحد القضايا الرئيسية التي يواجهونها للوصول إلى الموارد المتمثلة بالأرض الزراعية. ومن المفارقة أنه مع انخفاض النشاط الزراعي في الريف الحضري في بروفانس ، فمن الصعب على سكان

الريف الجدد النجاح في خططهم للاستقرار هناك ، وهو أمر راجع على وجه الخصوص إلى التمدد العمراني الذي يجتاح المناطق الحضرية المحيطية باتجاه منطقة بروفنسال هويرتا ، حيث تنمو من مدن إيكس أون بروفانس ومارسيليا وأفينيون المجاورة. من المدن الكبرى المجاورة مثل إيكس أون بروفانس ومرسيليا وأفينيون.

في هذا السياق تخضع الأراضي الزراعية لمضاربات مكثفة، مما يؤدي إلى انخفاض سوق الأراضي بشكل كبير[8] . وبالفعل تتميز البيئة الطبيعية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط بوجود العديد من الأراضي الصغيرة .الغير المزروعة . وفي هذه الفجوات يتفاوض العمال الزراعيون السابقون، أو أطفالهم ذوي الأصول المهاجرة، سرًا بشأن إمكانية وصولهم إلى هذا المورد الذي يحظى بالتقدير وإهمال في الآن ذاته.

ومن خلال عمل هذه الفئة في المناطق الزراعية الإنتاجية، يسمح لهم بتحديد المناطق الزراعية المهمشة وبدأ باستخدام استراتيجيات غير رسمية لضمان الوصول إلى هذه الأراضي الزراعية، وذلك من خلال التحدث مباشرة إلى أصحابها، دون إضفاء الطابع الرسمي والإداري على إمكانية استخدام هذه الأراضي .على سبيل المثال، من خلال اتفاقيات شفهية مع أصحاب هذه الأراضي الغير المزروعة، بحيث في مقابل استخدامهم للأرض يقومون بتنظيف و إعداد هذه الأراضي مجانًا والتي كانت مهملة لعدة سنوات من قبل المالكين المسنين أو الورثة الذين يعيشون في المدينة والذين يلزمهم القانون بالمحافظة عليها.

ومن المفارقة، أنه في حين أن العمال المغاربة، وهم أجانب من ذوي الإمكانيات المتواضعة و بدون أي تدريب زراعي، لا يبدو أنهم في وضع يسمح لهم بالوصول إلى مورد الأراضي في حالة توتر، فإن مرونة الممارسات غير الرسمية التي يحشدونها تجعلهم فاعلين ومرغوبين من قبل ملاك الأراضي الذين بدورهم يسعون إلى التقليل قدر الإمكان من المعاملات الرسمية مع المستأجرين المحتملين. ومع ذلك، إذا سمحت هذه الاستراتيجيات للمزارعين المغاربة بالانطلاق بمفردهم على حسابهم الشخصي، فإن هذه الاتفاقيات قابلة للتراجع وتحصرهم أحيانا في حالة من الانعدام الأمني وعدم الاستقرار من ناحية استخدام الأرض معتمدة على العلاقات التي يربطونها مع المالكين وعائلاتهم.

لعدة سنوات، يمارس معظم المزارعين المغاربة نشاطهم في ظروف غير مستقرة، قبل أن يتمكنوا في بعض الأحيان من الوصول إلى ملكية الأراضي. يقوم هؤلاء المزارعين المغاربة الذين يفتقرون إلى رأس المال ببناء مزارع متواضعة، حيث يعيدون استخدام المعدات المستعملة، التي لا تتناسب بشكل جيد مع المحاصيل ذات الإنتاج المكثف، مما يدعوهم إلى التضامن مع أقرانهم بحيث يقومون باستخدام شبكات المعارف المحلية وعلى وجه الخصوص، مع أقرانهم من الجالية المغربية، وذلك لاستخدام واقتناء معدات أو منتجات وقاية النباتات، والتفاوض على القروض، وإيجاد يد عاملة مرنة ورخيصة أو حتى تطوير شبكة عملاء على المستوى الإقليمي. وبالتالي فإن هذه الممارسات غير الرسمية هي مورد تستخدمه الطبقات العاملة من الأصول المهاجرة لتحقيق استقرار في مسار هجرتها والخروج من حالة

[8] يتعلق موضوع المضاربة بتغيير محتمل في المخطط الحضري من شأنه أن يعدل استخدام الأرض، ويمكن بعد ذلك أن تصبح بعض قطع الأراضي المستخدمة حصريًا للزراعة قابلة للبناء فتعرف قيمتها زيادة كبيرة في سوق الأراضي.

- يتسم الريف البروفنسالي بأجواء معادية للأجانب بشكل علني. ومن أجل حماية الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات، استخدمت رسومات لضمان عدم الكشف عن هويتهم. قام بإنتاج الرسومات أنطوان ريغو، وهو طبيب ورسام أفلام، استنادًا إلى صور فوتوغرافية وأوصاف دقيقة للعمل الميداني.

العمل المأجور. حتى لو كان وضعهم غير مستقر، فإن المزارعين المغاربة إذا أصبحوا أصحاب العمل فهو بنظرهم يمثل وضعا اجتماعيا يحسدون عليه، ويرتبط بالنجاح ويسمح لهم بتوسيع آفاقهم المهنية في سوق العمل الزراعي الصعب والمتقلص.

الرسم التالي هو عبارة عن صورة شخصية لأفضال(Afzal) رسمت من قبل أنطوان ريجود .كان أفضال من أوائل المزارعين المغاربة الذين أسسوا أعمالهم الخاصة المستقلة في وادي دورانس السفلي في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، حيث بدأ من لا شيء، وقام بزراعة الأرض لفترة طويلة، ومن ثم باع محصولها بشكل غير رسمي في الأسواق المفتوحة بجوار مكان عمله. وهو الآن على رأس مزرعة مزدهرة، في صيف 2019، عندما أسائله عن مسيرته، يتذكر المراحل الصعبة التي مر بها في أيامه الأولى، إلى جانب زوجته التي ساندته لفترة طويلة دون أن يقوم بالتصريح عنها معه كعاملة تعمل في المزرعة . ثم قرر أن يستقر ومعه آلة إزالة الأعشاب اليدوية القديمة التي استخدموها للحفاظ على عدة هكتارات من المحاصيل قبل أن يتمكن من شراء آلة إزالة الأعشاب الميكانيكية، الأكثر ملاءمة لحجم ومتطلبات مزرعتهم.

الشكل 2. أفضل يظهر بفخر مع أدوات عمله القديمة، بوش دو رون، *2019*

©أ. لاسكو، أ. ريجود | التصميم: آن لاسكو – الإنتاج: أنطوان ريغو،

فلاحو الحيس: المقاولون المغاربة، بروفايل جديد للفلاحين في منطقة بروفانس

يقوم المزارعون المغاربة بإعادة تنشيط الوظيفة الأساسية للأراضي وهي الإنتاجية، مما يعني تنشيط قطاع التغذية الزراعية في منطقة البحر الأبيض المتوسط الفرنسي وذلك من خلال إدخال أنفسهم في هوامش النظم الإنتاجية. ومع ذلك، فإنهم يعيدون استثمار الأرض في الزراعة من خلال استخدام نفس أساليب الإنتاج المكثفة التي يفضلها المزارعون المحليين في منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ ثمانينات القرن الماضي أي منذ الانفتاح التدريجي للأسواق الأوروبية وخارجها وخلق المنافسة بين السلع. مما يعني، إنهم يعيدون تطبيق أنظمة استغلال الأرض

والعمالة الأجنبية التي عايشوها هم أو آباؤهم كعمال.

إن الاستراتيجيات المقاولتية لهذه الفئة، بعيدة كل البعد عن تلك التي ينهجها سكان الريف الجدد[9] هذه الفئة الجديدة التي تعطي اهتمامًا خاصًا بالبعد البيئي للزراعة والذي يتم التشجيع عليه أيضا من قبل جمعيات التي تساعد هذه الأخيرة على الاستقرار والتأسيس في هذه المنطقة الريفية. هذه الفئة من المزارعين المغاربة تفضل في بادئ الأمر أن يكون الاستقرار في هذه الأراضي خارج الإطار المؤسساتي وبعيد عن مساعدة الدولة. وبهكذا يشكل رواد الأعمال الزراعية المغاربة صورة جديدة للمزارعين في بروفانس، وذلك بدءًا من وصولهم كمهاجرين اقتصاديين خضعوا لتحول مهني من خلال تغيير وضعهم ومجال خبرتهم . بالإضافة إلى التشعب في حياتهم المهنية الذي يجعل بعض الأحيان من الصعوبة بتقديم أنفسهم كمديري المزارع.

في الواقع، فإن السنوات الأولى من التأسيس، يواجه المقاولون المغاربة عدة صعوبات في الإدارة الفنية للمحاصيل، أو توفير اليد العاملة، أو حالة العلاقات مع المزارعين في الجوار، أو حتى في العلاقات مع المؤسسات الحكومية الفاعلة. وبالفعل، من بين العمال الذين يؤسسون أعمالهم الخاصة، هناك أغلبية كبيرة غير قادرة على التغلب على الثغرات والصعوبات هذه، مما يؤدي إلى تراجع في نشاطهم الزراعي والإنتاجي بعد بضع سنوات، وفي كثير من الأحيان يكون هذا التراجع ناتج عن تفتيش يقوم به ممثلو سلطة الدولة (مفتشية الشغل، شرطة الحدود، الضمان الاجتماعي الزراعيMSA)، قد ينتج عنه ظهور ممارسات غير رسمية لهؤلاء المزارعين وبالتالي مخالفة الشركة.

في الواقع، يمثل المقاولون من الجالية المغربية الذين أنشأوا أعمالا مستقرة ومستدامة مع مرور الوقت أقلية مقارنة بمجموع أولئك الذين يحاولون البدء بذلك .ومع ذلك، ونظرًا لعددهم والكميات الكبيرة من السلع المنتجة من قبلهم، فإنهم اليوم يشاركون بشكل فعال في الحفاظ على النظام الإنتاجي لل Huerta البروفنسالية وأصبحوا مدرجين في أنظمة إنتاج الغذاء في منطقة البحر الأبيض المتوسط في فرنسا، وبذلك فهم يساهمون في تغذية جزء من فرنسا وأوروبا. ومع ذلك، ضمن هذه الفئة الجديدة للمزارعين، بإمكاننا تحديد عدة مسارات مختلفة، اعتمادًا على أجيال المزارعين وأعمارهم، ولكن أيضًا على استخداماتهم لشركاتهم الزراعية و بالتالي التعرف على ثلاثة أجيال من رواد الأعمال المغاربة في بروفانس. فنجد أولئك الذين بدأوا الحركة الاستقلالية في القطاعات المهنية الزراعية في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وهم في الغالب فلاحون، جاءوا إلى فرنسا في السبعينيات والثمانينيات، والذين بنوا لعدة عقود حياتهم المهنية كعمال موسميين بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط . و مع تقدمهم في السن، قاموا بتأسيس أعمالهم الخاصة على حسابهم الشخصي مع نهاية حياتهم المهنية، في الخمسينيات من العمر،

ويرجع ذلك في كثير من الأحيان إلى قلة الآفاق المهنية، وتقلص سوق العمل الزراعي الناتج في بعض الأحيان عن إفلاس أصحاب العمل المحليين المالكين للأراضي وعدم تمكنهم من العثور على مشترٍ .وغالبًا ما يقومون بإنشاء مزارعهم في الأراضي المتواجدة على جوانب وهوامش المؤسسات الزراعية التي عملوا بها، وبذلك بقيت مزارعهم متواضعة، حيث تبلغ مساحتها بضع مئات من الأمتار المربعة أو بضع هكتارات بحيث تسمح لهم بضمان دخل متواضع حتى

[9] ظاهرة موجودة في أوربا وهي انتقال طبقة اجتماعية مقتدرة ماديا من المدينة إلى الريف

التقاعد، فقد تم تصميم هذه المزارع لتكون أدوات "للتدبر" خلال السنوات الأخيرة من حياتهم العملية، ولم تكن هدفا لاستثمارات مادية أو تحويلها لأراضي كبيرة مثل تحويلها إلى العقارات أو الاستثمار بمعدات زراعية كبيرة، كما يمكننا أن نرى فيما يلي رسم يمثل كريم في مزرعته . عامل زراعي جاء إلى فرنسا في تسعينيات القرن الماضي وهو على وشك التقاعد، يأتي للعمل في المساء على قطعة أرض مساحتها بضعة أمتار مربعة أعارتها له سيدة عجوز من القرية البروفنسالية التي يعيش فيها .الشمس تغرب وهو لم ينته من زراعة الكوسة بعد. وعلى حدود أرضه توجد قطعة أرض مجاورة مهملة، قام ببناء مستودع صغير مؤقت لتخزين المعدات المستعملة التي قام بشرائها بأسعار زهيدة.

الشكل 3: كريم يعمل عند غروب الشمس في مزرعته، بوش دو رون،2017

تصميم: آن لاسكو – إنتاج: أنطوان ريغو،*2017* | أ. لاسكو، أ. ريجود ©

يشكل أبناء الفلاحين الجيل الثاني من العمال الزراعيين المغاربة الذين استقروا في بروفانس . لقد هاجروا في طفولتهم أثناء لم شمل الأسرة ونشأوا في الأحياء الشعبية في البلدات المتوسطة الحجم التي امتدت إلى منطقة بروفنسال هويرتا (صالون دو بروفانس، كافايون، بوكير) .وبعد أن أكملوا التعليم لسنوات قليلة، واجهوا، وهم صغار، عالمًا من العمل المأجور الذي لم يوفر لهم سوى فرص قليلة للنهوض الاجتماعي والاقتصادي. نتيجة شروط العمالة هذه، نشأت الفئة الثانية من المقاولين ذو الأصول المهاجرة التي تعمل في الغالب في مهن كالعمل على الرافعات، أو الميكانيك، أو محضري الطلبات، أو سائقي الشاحنات بحيث أسسوا أعمالهم الخاصة على حسابهم الشخصي أو تولي إدارة الأعمال الهشة والغير مربحة لوالديهم من بعدهم وذلك إما في

منتصف العشرينات من العمر وذلك قبل تكوين أسرة، أو بالقرب من الأربعينيات بمجرد استقرار أسرهم وبلوغ أطفالهم عمر مناسب. وبالاعتماد على خلفيتهم التعليمية القصيرة وتجربتهم في عالم العمل الفرنسي، يقومون بتحديث وتوسيع وتطوير زراعات جديدة وإضفاء الطابع الرسمي عليها جزئيًا من خلال التعامل مع مؤسسات توظيف العمال بموجب عقود مؤقتة OFII ، وشراء قطع الأراضي وتسجيلها لدى غرفة التجارة.

وعلى عكس الشركات غير الناجحة التي أقامها أهلهم، يسعى هذا الجيل الثاني من رواد الأعمال الشباب إلى إنشاء مزارع مستدامة ومربحة مع الوقت . و إذا كان البعض منهم ينظر إلى الأعمال الزراعية على أنها أداة للتقدم الاقتصادي المؤقت، من خلال إخفاء أنشطة معينة أو مصادر دخل غير رسمية عند بداية المشروع، أو مثل إعادة بيع السلع التي تم شراؤها مسبقًا في أسواق الجملة المخصصة للمنتجين، أو حتى إخفاء بعض المساحات المزروعة، فالبعض الأخر من المزارعين المغاربة الجدد يقومون بإضفاء الطابع الرسمي على نشاطهم تدريجيًا ويراكمون بعد بضع سنوات تراثًا ريفيًا متينا، على أمل بأن يصبحوا ملاك للمزارع والمنازل. وترجع نجاحات هذه المبادرات وإخفاقاتها أيضًا إلى مشاركة المرأة في الحياة الزراعية. بالرغم من أنها غير مرئية في المزارع، فإنها تتحمل مسؤولية الكثير من المهام المنزلية، بما في ذلك المهام الأساسية كإدارة اليد العاملة والمحاسبة والقيام بالتصاريح للجهات الإدارية الحكومية.

في نهاية الأمر، أولئك الذين يصفون أنفسهم بـ "فلاحي الحيس، بسبب الصعوبات التي يوجهونها في مسارهم في مجال الأعمال الزراعية ، يجسدون الآن شخصية جديدة للمزارعين تفتح آفاقا أمام جيل كامل من العمال المهاجرين في فرنسا.

الاتجاه نحو برفانس مغربي؟ الترسخ في الريف تدريجيا

في الجزء الأخير من رسالتي الدكتوراه، كنت مهتمة بالتأثيرات الخاصة للنشاط الزراعي في عملية ترسخ المزارعين ذو الأصول المهاجرة . وبينما يتنقل العمال العابرون للحدود الوطنية باستمرار عبر الهجرة الممتد بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، فإن الشروع في النشاط الزراعي يعيد تشكيل أفق هذه الهجرة. فمن ناحية الأولى، تبدأ الرحلات ذهابا وإيابا مع المغرب بالتقلص تدريجيا، نظرا لفرض هذا النشاط الزراعي تواجدا مستمرا لمدير المزرعة داخل شركته من أجل إدارة القوى العاملة والمحاصيل وبيع البضائع. ومن ناحية الأخرى، يقوم الفلاح النشط بإعادة تطوير شبكة متينة من المعرفة المتبادلة مع منطقته الأصلية في المغرب، بهدف توظيف يد عاملة موسمية سهلة التوظيف من أبناء نفس البلد المتوفرين نتيجة الحاجة للعمل وأيضا بفضل قوة الروابط القائمة بين العائلات.

وفي فرنسا، بدأ المزارعون المغاربة حركة تنقل ثانية، من المدن والقرى المحيطة بالمدن التي أمضوا شبابهم فيها في منازل صغيرة جدًا بحيث لا تتسع لعائلاتهم الكبيرة أو في مساكن اجتماعية جماعية، إلى الريف حيث يبنون حياتهم المهنية . وهناك أيضًا، يقلدون ممارسات الفلاحين المحليين البروفنسيين ويتخذون من بعض هذه الممارسات كعلامات للنجاح .على سبيل المثال، بالنسبة لأولئك الذين أصبحوا مالكين للأراضي الزراعية، فإن بناء أو الحصول على منزل مصمم على طراز المنزل البروفنسي يعد علامة متباهية على النجاح بالرغم من النظرة المرتبطة بمناطق الإنتاج الزراعي في البحر الأبيض المتوسط على مر السنين على أنها أماكن لاستغلال العمالي لأفراد الجالية المغربية، فإنها أصبحت الآن بمثابة مساحات تستثمرها بدورها أسر المزارعين الجدد

من أصول مغربية مهنيا واقتصاديا وحياتيا على مدى عدة أجيال.

ومع ذلك، فإن ترسيخ هؤلاء السكان من أصول أجنبية والذين كانوا يمثلون سابقا العمال الموظفين محليا في المناطق الريفية لا يحدث بدون مشاكل. في الواقع، يتطور عمل الملاك المغاربة في سياق حالة من التوترات المرتبطة بالهجرة، بحيث يتعرض تحولهم المهني لانتقادات شديدة، مما يغذي الخطاب المعادي للأجانب .وبالتالي، يتهمهم المزارعون المحليون بتأجيج المنافسة غير العادلة بسبب الممارسات غير الرسمية التي يستخدمونها في عملية ترسخهم تلك، على الرغم من أن هذه الممارسات غير الرسمية تم استخدامها نفسها لعدة عقود من قبل الفلاحين المحليين لتخفيف الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالتدهور الزراعي في المنطقة .وبهذا المعنى، فإن التوترات والخطابات المعادية للأجانب والتي غداها هذا التحول المهني للمزارعين المغاربة في الحويرتا البروفنسالية، تعكس الشعور بالانتقاص من مكانة السكان من المزارعين المحليين، الذين يرون أن مجموعات العمال الأجانب الذين اعتمدوا عليها لفترات طويلة في شركاتهم والذين أصبحوا ملاك للأراضي الزراعية حاليا قد حرروا أنفسهم من العمل المأجور، وبالتالي تعطيل النظام الاجتماعي الذي يقوم عليه النظام الإنتاجي للبحر الأبيض المتوسط الفرنسي.
وبعيدًا عن كونها حالة خاصة مرتبطة بالمغاربة، فإن الممارسات غير الرسمية هي أدوات مقاومة يحشدها العمال الزراعيون للحفاظ على أنفسهم والتقدم في عالم ريفي وضع تحت الاختبار على مدى عقود من السياسات الليبرالية الجديدة التي وضعت الأفراد والسلع في منافسة مستمرة.

خاتمة

وقد مكّن بحث الدكتوراه هذا من تسليط الضوء على الاستراتيجيات الإرادوية التي استخدمها أفراد الجالية المغربية في فرنسا لزعزعة العالم الاجتماعي الذي تم ربطهم به أثناء هجرتهم . و من خلال تحولهم إلى مقاولين زراعيين، حتى لو كانوا غير مستقرين، فإن العمال المغاربة وأطفالهم يقللون من صرامة قيود الهجرة المشروطة ويفتحون أفقًا جديدًا من الإمكانيات لجيل كامل من العمال الشباب العابرين للحدود.

وبالتالي عدة نقاط مشتركة تتيح لنا مقاطعة مصائر هؤلاء العمال الزراعيين والمزارعين الجدد بين المغرب وفرنسا. فإن هاتين الحالتين تجسدان مجموعات من العمال الذين غالبًا ما تكون ظروف معيشتهم وعملهم غير متطرق لهما كثيرا من قبل الإعلام، وغير مرئية ومنسية من الأجندات السياسية .ومع ذلك، فإن أشكال المقاومة الصامتة التي يطبقونها ضمن النظم الإنتاجية للبحر الأبيض المتوسط تشهد على قدرات هؤلاء السكان على التطور في ظل أنظمة الهجرة والعمل المقيدة والتي تضع المهاجر في اختبار مستمر.
بهذا المعنى، فإن الممارسات غير الرسمية هي أداة مقاومة يلجأ إليها الأفراد الذين يواجهون الصعوبات وذلك من أجل التأثير على مستقبلهم ومن أجل أن يصبحوا أيضا أفراد فاعلين في تلك الأنظمة الإنتاجية التي تعاني من التوتر والتي أصبحوا جزءا منها.

المراجع المعتمدة

Eribon D, 2009. *Retour à Reims*. Paris, Fayard.

Fontaine L, Weber F, 2011. *Les paradoxes de l'économie informelle. À qui profitent les règles ?* Paris, Karthala (Les terrains du siècle).

Hubscher R, Farcy JC, 1996. *La moisson des autres. Les salariés agricoles aux XIXe et XXe siècles.* Paris, Edition Créaphis.

Jézégou A, 2022. Agentivité, in *Dictionnaire des concepts de la professionnalisation, Louvain-la-Neuve, De Boeck Supérieur* (Hors collection Psychologie/Pédagogie), p. 41-44.

Mésini B, 2013. Mobile, flexibles et réversibles. Les travailleurs saisonniers maghrébins et latinos "détachés" dans les champs de Provence, *Hommes & migrations. Revue française de référence sur les dynamiques migratoires* 1301 : 67-76.

Piore M, 1979. *Birds of passage. Migrant labor and industrial societies*. Cambridge, Cambridge University Press.